تعريف بالكتاب

تجرى المناقشة فى الحوار التالى على فن موليير بالنسبة الى عصره وبالنسبة الى العصر الحاضر ، ولا يخص النقاد الثلاثة رواية بعينها بقصرون البحث فى موضوعها دون غيرها .

ويرى هؤلاء النقاد الخبيرون أن فن موليير المسرحى يذكر القارىء حينا بفن المسرحية البلاطية فى عصره ، ويذكره حينا آخر بفن المهزلة الإيطالية التى كانت تروج رواجا كبيرا بين أبناء المدن والقرى منذ أواخر القرون الوسطى الى أيام موليير وما بعدها ، وكان رواجها بين الفرنسيين لا يقل عن رواجها بين الايطاليين الذين نسبت اليهم ، وقد نضيف نحن الى ذلك أنها راجت فى مصر والشرق العربى مثل هذا الرواج وانتشرت مع الفرق المتنقلة حيث تقام الموالد والحفلات الموسمية من قرى الريف أو مدن العواصم الكبرى ، واسم «البلياتشو» الذى يطلق على الممثل المضحك فى هذه المهازل مقتبس بلغته الأصلية من تلك المهازل الايطالية .

والفنان متقابلان على الطرفين وان لم يكونا متعارضين متناقضين فى الغاية الفنية .

فالمسرحية البلاطية التى كانت تمثل فى قصور الملوك والنبلاء على مسمع من أصحاب التيجان والقلانس كانت تتقيد ـ اضطرارا ـ بمراسم التشريفات الملكية ، وكانت الأزياء النفيسة غالبة على شخوصها البارزة غلبة الأزياء التقليدية التى تتميز بها الرتب وتختلف باختلاف الألقاب والمظاهر قبل أن تختلف باختلاف الأمزجة والأخلاق ، وكانت صفة السمت والأبهة ملازمة لها فى كلماتها وحركاتها وفاقا لهيئة

البلاط وللعرف المتبع بين المتحدثين بمسمع من الملوك والملكات ، فكانت الدرامة والملحمة أقرب الى هذا الجو من الملهاة والمهزلة ، وكان أبطال الملاحم هم النخبة المختارة على تلك المسارح البلاطية ؛ لأنهم أرباب وأنصاف أرباب وفرسان من الانس يتلبسون بلباس المردة وينتظمون مع الأرباب وأنصاف الأرباب فى حلقة واحدة على مسرح الخيال . فاذا سمحت الأبهة الملكية بالاصغاء الى الفكاهة المسلية على مسارحها فقد تسمع بها لأنها تؤدى هناك دور « النديم المهرج » الذى يسمح له ببعض السخرية مع اطراح الحشمة والانطلاق بين خاصة المقربين من قيود الوقار وشارة التاج والصولجان . وهنا يقترب المسرح البلاطى بعض الاقتراب من مسرح المهزلة الايطالية فى خيام الموالد ومواسم الريف ، ولكنه اقتراب قد يفارق الحشمة ولا يدنو كثيرا من الابتذال .

وقد كان على موليير أن يوفق فى فنه بين مسرحية البلاط ومسرحية المهزلة الايطالية ، كان عليه أن يلاقى فى فن واحد بين بهو التشريفات وبين مجلس الخلاعة الذى لا يبالى أن يعرض للناس ما يعرضه المرء لنفسه بين جدران حجرة النوم أو حجرة اللهو — مع رفع التكليف .

وقد أفلح موليير حقا فى هذه المهمة العسيرة ؛ لأنها كانت مهمة ضرورية يوم كان البلاط يسمح بعرض المهزلة يوما ولا يسمح بها فى جميع الأيام ويوم كانت مزاحمة المهزلة الايطالية تضطر الفنان القدير الى مجاراتها حتى منتصف الطريق ، اذ كانت كرامة فنه تأبى عليه أن يجاريها طوال الطريق . وهذه هى القنطرة التى أقامها موليير قبل ثلاثة قرون وبلغ من توفيقه فى تأسيسها أنها عاشت بعد ذلك وتعيش الى اليوم وينسى الناس أنها كانت قنطرة انتقال لأنها بناء وطيد صالح للاستقرار عليه .

وليس فن موليير قنطرة بين الفنين باعتبار النظر الى السمت والوقار ، أو النظر الى الفارق بين بهو التشريفات ومجالس الخلاعة وحسب ،

والكنه فنطرة وسطى بالنظر الى اعتبار الدقة الفنية والفطنة الى كفاية التمثيل وكفاية التأليف .

فهناك فارق بين أدوار الملاحم وأدوار « الشخصيات » المستقلة على المسرح الحديث . ان أدوار الملاحم أثواب منتفخة تمتلىء بأبهة الزينة كما تمتلىء بأبهة الخيال ، وكل دور على مسرح البلاط فهو مثال معروض على زى المردة وزى البطولة التى نتمثلها على البعد ولا نلمحها بيننا كما نلمح شخوص الأحياء من عامة الرجال والنساء .

أما أدوار المهازل الايطالية فهى نماذج متكررة للأشخاص الذين يترددون أمامنا كل يوم ، ولكنها ليست « بشخصيات » مستقلةتنعزل كل واحدة منها عن الأخرى كماتنعزل الشخصيات المستقلة بين أبناء الصناعة الواحدة .

فنحن نرى على مسرح المهازل الايطالية دور الفارس ودور العالم ودور القس ودور الطبيب ودور الزوج ودور الزوجة ، نماذج جامعة تدل على أفراد الصنعة كافة ، ولا تخص منهم شخصا شخصا بالتمييز والتحليل .

ومهمة موليير هى مهمة الفنان الذى توجب عليه الضرورة أن ينظر الى دور الملحمة الخيالية ، وليس هو بالنموذج ولا بالشخصية المستقلة ، ولكنه صورة من صور المبالغة فى التفخيم والتعظيم أو صورة من صور الخيال ، وعليه أن يجرد هذا الدور من فخامته المتخيلة لينقله الى عالم الحياة ، بل الى عالم الحياة التى تبعث الضحك من وراء ذلك الاهاب المنفوخ .

فاذا نظر الى هذا الدور الخيالى لينتقل منه الى أدوار المهزلة الايطالية كانت الوثبة بعيدة جدا بين طنطنة المسرح البلاطى وبين تهريج المسرح المرتجل وصبغة النماذج الثابتة والأحاديث المرتجلة عفو الساعة من كل نموذج ثابت على وتيرته المتكررة وكان عليه مع هذه الوثبة البعيدة

أن يجعل لكل دور كلامه المحفوظ ولا يتركه ليرتجل كلامه على المسرح كما كان الممثلون على المسرح الايطالى يفعلون ويقولون .

وتوفيق موليير هو هذا التوفيق الرائع بين الشخوص الموهومة وبين النماذج المتكررة التى تصدق على الجملة ولكنها لا تعطينا من أفراد هذه النماذج شخصية شخصية على استقلال .

فاذا عرضنا روايات موليير فنحن نرى فيها عناوين النماذج البشرية كما أطلقها على رواياته المنوعة ، وهى هنا أشكال وألوان بين نموذج الطبيب المغصوب ، ونموذج البخيل ، ونموذج المريض الموسوس ، ونموذج الجاهل المدعى ، ونموذج المرأة المتحذلقة ، ونموذج الدون جوان ، ونموذج الزوج الخادع والزوجة الخادعة ، وكلها نماذج عامة تشبه نماذج المهزلة الايطالية كما تشبه أدوار المسرحية البلاطية ، ولكنه شبه من جانب واحد ينتهى الى المخالفة من جانب آخر ، ليأخذ بالوسط الأمثل بين الطرفين .

ان أدوار موليير تشبه أدوار المهزلة الايطالية لأنها « نماذج » ذات عناوين معروفة كعنوان الطبيب ، وعنوان الفارس ، وعنوان القس ، وعنوان الريفى ، وعنوان الجاهل المتحذلق ، ولكنها تحمل العنوان الشامل وتتميز تحته بشخصية مستقلة قابلة للتحليل والتمييز ولا تندمج فى النموذج العام كما تندمج الأشباه الصناعية فى شبه واحد كالتمثال المرسوم يتكرر على شكل واحد ولا يتجدد لنا بتجدد الأشكال .

واذا تشابهت مهزلة موليير والمهزلة الايطالية فى الضحك والسخرية ، بل فى التهريج أحيانا والتهويل ، فانها لتفارقها على الأثر لتلتقى بالمسرحية البلاطية فى الأسلوب الفصيح والكلم المحفوظ والدور الذى يمليه المؤلف على الممثل كما يقتضيه وحى الشخصية ووحى الفن ووحى العاطفة المشتركة بين أصحاب الأدوار .

فهاهنا عبقرية خلاقة تخرج من قيود الضرورة التى تربطها بفن البلاط وفن الموالد والمواسم لتنطلق مع حرية الفن الأصيل وتبقى على

العصور المتعاقبة ولا تنقضى بانقضاء عصرها الى ناحيـــة التشريفات الملكية ، ولا الى ناحية الأسواق وموالد الريف والحاضرة .

ومعجزة موليير أنه أبقى لعصرنا الحاضر فنا يصلح له ويعتبر من فنونه المختارة بعد ما انتهى اليه من دراسات النقد والمقابلة بين مناهج التأليف والتمثيل فهو راسم « شخصيات » تقبل التحليل النفسانى على أحدث الآراء ، ولو كان قصاراه أنه ناقد مقلد لذهبت رواياته كما ذهبت أدوار النماذج المرتجلة وذهبت شخوص الخيال والمبالغة من صنع مسارح البلاط .

ويشهد النظارة اليوم روايات موليير على مسارح العواصم الكبرى فلا يفوتهم أنها تنتمى فى قوالبها الى فن القرن السابع عشر ، ولكنهم يشهدونه ويعودون الى شهوده مع ذلك ولا يعيبونه بانتمائه الى عصره ؛ لأن المؤلف الذى لا يدلنا على زمانه وأهل زمانه لا يحسن صناعته ولا يصدق فى أدائه وتصويره ، وانما يعرفون زمانه وأهل زمانه ليعجبوا من قدرته على مخاطبة العصر الحاضر وأمانته للطبيعة الانسانية فى كل حقبة وكل موطن ، وليس بالفنان العبقرى من يعجز عن تمثيل معاصريه ليمثل أبناء العصور التالية بديلا منهم قبل أن يرتفع عنهم ستار الزمن ، وانما العبقرية الفنية أن تأتى صورة العصر مطابقة لأحواله وأحوال أهلها ولكنها لا تضيق مع النظر المجدد حتى تستوعبها تلك الحقبة كل الاستيعاب فلا تبقى لها منفذا تطلع منه على حقائق النفس البشرية وراء صبغة العصر وتقاليد الأوان ، بل تتسع لها آفاق النظر فلا تحتجب عنها الطبيعة البشرية كما تكون غدا وكما كانت بالأمس ! يبقى منها ما هو باق كما خلقه الله ، ولا تتبدل منها غير ألوان الطلاء وأغلفة القشور .

عباس محمود العقاد